البرامج الدراسية في الخارج: استثمار بلا حدود

عبدالعزيز بن عبدالله بن طالب❖

أحسنت وزارة التعليم العالي السعودية صنعاً بالتوسع في برامج ابتعاث الطلاب لمواصلة تعليمهم في الولايات المتحدة الأمريكية لمراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. في هذا التوجه ، وإن جاء متأخراً ، استثمار في التعليم الراقي وانفاق للأموال على تعليم الشباب الجادين . وهو من أفضل أنواع الاستثمار، ونتائجه وثمراته ستعود ، إن شاء الله ، على الفرد والأمة بكل خير.

لقد تأثرت موازنات عدد من الدول العربية إيجاباً بفعل ارتفاع أسعار النفط في الأعوام الأخيرة ، ومن المهم تخصيص جزء من هذه العوائد الوفيرة لتطوير الطاقات الفردية ، وتأهيل الشباب وتدريبهم على المشاركة الفاعلة في التحولات التكنولوجية والاقتصادية والإدارية الحديثة ، وهذا لن يتحقق ما لم يقبل الشباب على اكتساب المعارف والعلوم الضرورية ، حتى لو تجشموا في سبيل ذلك مشاق السفر والاغتراب. إن الابتعاث ، في هذا السياق ، فرصة رائعة لتطوير قدرات شباب الأمة ، ورفع مستواهم العلمي ، وزيادة خبراتهم العملية. لقد أنفقت دول عربية كثيرة خصوصاً الخليجية منها أموالاً طائلة على بناء بنية تحتية ضخمة ، فأصبحت لدينا مدن جامعية ومدن طبية ضخمة ، ومن المهم أن تركز الجهود الآن على الاهتمام بتنمية الكوادر البشرية وتطويرها ، فلا قيمة لجامعة أنفقت البلايين على بنائها وتهيئتها ما لم يوجد فيها أساتذة متميزون من أبناء الوطن، ولا قيمة لمدينة طبية مجهزة بكل شيء باستثناء الأطباء المؤهلين.

وبحسب تقرير الأبواب المشرعة Open Doors Report الصادر العام الماضي عن معهد التربية الدولية IIE في نيو يورك ، فإن عدد الطلاب الأجانب في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ نحو ٦٠٠ ألف طالب يشكلون ٤،٦ في المئة من إجمالي عدد الطلاب في التعليم العالي الأمريكي، وتأتي الهند والصين وكوريا الجنوبية في مقدم الدول «المصدرة» للطلاب الى أمريكا ، اذ يبلغ عدد الطلاب من هذه الدول حوالى ١٩٠ ألف طالب أو ثلث الطلاب الأجانب

تقريباً. إن هذه الدول تجني اليوم نتائج استثمارها في التعليم والتدريب والابتعاث ثورة تكنولوجية ونهضة اقتصادية وصناعية كبرى. لقد عاد طلاب هذه الدول إلى بلدانهم مسلحين بالعلم والخبرات والمهارات الضرورية فأسهموا في نهضتها وتقدمها ، وليس سراً أن معظم مديري ومسؤولي الشركات الصناعية والقياديين البارزين في هذه الدول هم من خريجي الجامعات الأمريكية.

لنأخذ كوريا الجنوبية كمثال ، فهذا البلد الفقير في موارده الطبيعية ، المصنف ضمن أفقر ثلاث دول في آسيا في منتصف القرن الماضي، أصبح اقتصاده الآن في المرتبة الثالثة بين أكبر الاقتصادات في قارة آسيا ، بعد اليابان والصين ، وفي المرتبة العاشرة بين أغنى دول العالم. وبحسب تقرير دلال أبو غزالة (الحياة، ٢٠٠٥/٨/٦) فإن قيمة الصادرات الكورية بلغت في شهر نيسان (أبريل) الماضي بليون دولار أمريكي يومياً معظمها من السيارات والالآت المصنعة والتكنولوجيا. وفي حديث لـ "الحياة" (في التقرير السابق) أكد نائب رئيس شركة إل جي LG العملاقة ديفيد بارك أن بلاده "تنبهت منذ السبعينات إلى أن التعليم هو مفتاح الانطلاق الاقتصادي والتنمية".

إن التعليم ، بكل تأكيد ، هو مفتاح الانطلاق الاقتصادي والتنمية ، ولا بد أن تصرف الأموال بسخاء في مجالات التعليم والتدريب الكثيرة والمتنوعة ، والتي منها إتاحة الفرص للطلاب المتميزين والنجباء للدراسة في الجامعات العالمية المتقدمة. إن الابتعاث يمنح فرصاً أكبر من مجرد اكتساب لغة أجنبية والحصول على بعض المعارف والمعلومات، وهو يتعدى ذلك إلى الاحتكاك بثقافات ومجتمعات أخرى وبأنظمة متقدمة في التعليم وبأساليب وطرق جديدة في التفكير وفي معالجة المشكلات، كما أن من فوائد الابتعاث الانفتاح على العالم الخارجي وتعريف الآخرين بديننا وثقافتنا ونشر الثقافة العربية والإسلامية.

ومع تأييدنا للتوسع في الابتعاث، في جميع مراحل التعليم العالي وفي التخصصات المهمة والضرورية، إلا أنه من المهم تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص لجميع الطلاب المتقدمين، ولا بد أيضاً من اشتراط توافر أمور معينة في الطالب المتقدم للابتعاث، كالتفوق العلمي وحسن السلوك واجتياز مقابلة شخصية دقيقة أو اختبار تحريري شامل ، كذلك من المستحسن ان يكون المرشح للابتعاث ملماً بلغة البلد الذي سيقصده ، الماماً كافياً ، ما يعطي انطباعاً عن

جديته ورغبته الأكيدة في الحصول على البعثة. وينبغي ألا تقتصر برامج الابتعاث على المبادرات الحكومية بل ينبغي أن تبادر الشركات والمؤسسات التجارية والهيئات الخيرية والأفراد الموسرون الى دعم برامج الابتعاث الحكومية أو تنظيم برامج منح دراسية مستقلة مع متابعتها والإشراف عليها.

وربما يتساءل بعضهم لماذا الابتعاث إلى أمريكا بالذات؟ ولم لا نرسل طلابنا للدراسة في الدول المتقدمة الأخرى؟ الواقع أن هناك مميزات كثيرة تتفوق بها أنظمة التعليم العالي والجامعات الأمريكية على مثيلاتها في الدول الأخرى ، فمعظم التقارير الإحصائية والدراسات العلمية المقارنة بين جامعات ومعاهد التعليم العالي المختلفة في العالم تؤكد ريادة الجامعات الأمريكية ، وعلى سبيل المثال ففي التقرير المنشور العام الماضي في مجلة "ذا تايمز هاير ايدوكيشن سيبليمنت" البريطانية والمتضمن أفضل ٢٠٠ جامعة على مستوى العالم احتلت الجامعات الأمريكية مراكز الصدارة بـ٦٣ جامعة ، فالجامعات الأربع الأولى هي جامعات أمريكية و١١ جامعة ضمن الجامعات العشرين الأولى هي أمريكية ، وفي التقرير الاحصائي لأفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم الصادر هذا العام عن معهد التعليم العالي في جامعة شانغاي احتلت الجامعات الأمريكية أيضاً مراكز الصدارة من دون منافس بـ١٦٧ جامعة (مع وجود ٥٠٠ جامعة تمثل ٣٩ بلداً من مختلف القارات إلا أنه لا توجد أي جامعة عربية مع ملاحظة وجود ٧ جامعات اسرائيلية).

وإضافة إلى تميز الجامعات الأمريكية وسمعتها العالمية الراقية فإنها أيضاً تفوق نظيراتها في البلدان الأخرى بالاهتمام بالبحث العلمي وتوفير أحدث التجهيزات والوسائط المساعدة للتدريس. إن متوسط ما تنفقه الجامعة الأمريكية على الطالب يصل إلى ٢٠ ألف دولار سنوياً مقارنة بسبعةآلآف دولار في بريطانيا وحوالى ١٢ ألف دولار في أستراليا وكندا.

ان تعدد الاختيارات وتنوعها ميزة أخرى مهمة ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية هناك أكثر من ٣٥٠٠ جامعة وكلية منها الجامعات الكبيرة التي يفوق عدد طلابها الخمسين ألف طالب، إلى الجامعات الصغيرة التي قد لا يتجاوز عدد طلاب الواحدة منها ألف طالب فقط. إضافة إلى ذلك فإن الطالب يستطيع اختيار مكان دراسته ، سواء في المدن الكبيرة أو في الضواحي أو في المدن الصغيرة في الريف ، ونظراً الى اتساع مساحة أمريكا واختلاف المناخ

فيها فإن بإمكان الراغب في الدراسة اختيار المكان المناسب له سواء في المناطق الباردة أو المعتدلة أو الدافئة.

كما تتميز الجامعات الأمريكية بالمرونة في ما يتعلق بمرونة النظام ، حيث انها تعتمد نظام الساعات أو الوحدات الدراسية، كما تتميز بكثرة التخصصات المتاحة في المجالات العلمية أوالنظرية (أكثر من ٦٠٠ تخصص) ، وهذه المجالات غير محددة بحاجة سوق العمل أو بالتخصصات الأساسية فقط كما هي الحال في جامعات البلدان الأخرى. إن هذه المرونة تعطي الطالب الحرية في اختيار المقررات التي تتفق مع ميوله التخصصية ورغبته العلمية ، كما أن الطالب له الحرية في تنظيم جدوله بالطريقة التي تناسبه ، فيدرس في الأيام والأوقات المناسبة له ويختار عدد ساعاته الدراسية الأسبوعية كما يختار أساتذته. ونظراً الى وجود الكثير من التخصصات خصوصاً في الجامعات الكبيرة فإن هذا يؤدي إلى توفير فرص دراسة مقررات إضافية قد تحسب ضمن المقررات المطلوبة للتخرج، بحسب ميول الطالب واهتماماته ، وعلى سبيل المثال فإن الطالب المتخصص في الهندسة يستطيع أن يسجل مقرراً أو مقررات في أحد المجالات الأدبية أو الفنية التي توافق ميوله واهتماماته.

أخيراً فإن الجامعات الأمريكية تتميز بالتنوع العرقي والديني والثقافي لطلبتها ، فالطلاب في الجامعات الأمريكية يمثلون كل الأعراق والجنسيات و الخلفيات الدينية والثقافية ، وبالإضافة إلى وجود طلاب غير أمريكيين ومن كل دول العالم تقريباً يدرسون في الجامعات الأمريكية فإنه حتى الطلاب الأمريكيين ليسوا من عرق أو أصل واحد ، فهناك الأمريكي الأبيض وهناك الأمريكي من أصل أفريقي وهناك الأمريكي من أصل لاتيني (هسبانك) وهناك صاحب الأصل الآسيوي... الخ. إن التنوع العرقي والديني والثقافي للطلاب في الجامعات الأمريكية وفي المجتمع الأمريكي عموماً يبدد شعور الطلاب الأجانب بالغربة ويمنحهم حافزاً للإبداع والتفوق.

لكل هذه الأسباب أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية قبلة طلاب العلم والباحثين عن تعليم راقٍ لهم أو لأولادهم أو مواطنيهم ، وبحسب التقرير المنشور في ايلول (سبتمبر) الماضي في مجلة "ذا تايمز هاير ايدوكيشن" البريطانية بلغت نسبة الطلاب الأجانب الذين يدرسون في الولايات المتحدة ٢٨ في المئة من إجمالي عدد الطلاب المغتربين حول العالم ، وتأتي بريطانيا في

المرتبة الثانية بنسبة ١٢ في المئة ثم ألمانيا ففرنسا فأستراليا بنسب ١١ في المئة و١٠ في المئة و٩ في المئة على التوالي، ومع اعتقادنا بتفوق الجامعات الأمريكية على نظيراتها في البلدان الأخرى فإننا لا نرى حصرالابتعاث في بلد معين أياً كان هذا البلد ذلك أن تنوع بلدان الابتعاث يظل دوماً سمة إيجابية.

وفي الختام نؤكد ضرورة نشر الوعي بأهمية الابتعاث الخارجي وتوضيح فوائد برامج الابتعاث ودورها المؤمل في التنمية والتطوير، كما أن من المهم تصحيح النظرة السلبية للابتعاث لدى الذين لا يرونه إلا مرادفاً للتغريب والانحراف ، ومع تأكيدنا أهمية دعم برامج الابتعاث الدراسي الى الخارج ودورها المؤمل في التنمية والتطوير ، إلا أننا نرى ضرورة الاهتمام بتطوير هذه البرامج ، ورفع أداء الملحقيات الثقافية للدول العربية في الخارج ، وضرورة اختيار الطلاب المؤهلين والمتميزين علماً وسلوكاً ، وإلا فإن برامج الابتعاث قد لا تحقق أهدافها المرجوة ، اذ قد تصبح سياحة يحظى بها بعضهم ويدفع تكاليفها الجميع.

❖ أكاديمي سعودي.

نشر المقال في جريدة الحياة ، الطبعة الدولية ، صفحة قضايا ، العدد ١٥٥٩٢

السبت ٨/١١/١٤٢٦هـ (١٠/١٢/٢٠٠٥م)

http://www.daralhayat.com/special/issues/12-2005/Item-20051209-10f255d1-c0a8-10ed-0041-2f4b683b739c/story.html